

العارف بالله الشيخ محمد الهاشمي رحمه الله تعالى

هو الإمام العارف بالله والدال عليه، المرئي، القدوة المرشد الكامل، المجدد، الراشد، العلامة المحقق المدقق، الوارث المتحقق، رئيس هيئة أرباب الشعائر الدينية، شيخ العلم والدعوة إلى الله تعالى في بلاد الشام، ذو السر الجلي والمدد الأسنى العلي.

عبد الله محمد بن أحمد الهاشمي بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي جمعة الحسيني، الدمشقي مسكناً، الساحلي التلمساني الجزائري أصلاً، المالكي مذهباً، الأشعري السلفي عقيدة، الشاذلي طريقةً ومشرباً، الأثري اتباعاً واقتداءً، الأستاذ، الحبيب النسيب الحسيب، الحائر من الورع والعلم أوفر نصيب.

ولد في مدينة (سبذو) من أعمال (تلمسان) من أبوين صالحين كلاهما من آل بيت النبوة يرجع نسبهما إلى سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي رضي الله عنهما. وذلك اليوم السبت 22 شوال سنة 1298 هـ الموافق 1880 م. وكان والده من أشهر علماء المدينة وقاضيهما. توفي والده وكان الشيخ علماء بلده فترة من الزمن.

سافر إلى تلمسان وعاش فيها، وأخذ العلم عن علمائها الأجلاء. تعرف على الشيخ محمد بن يلس. وأخذ عنه. وانتفع به وأجازه بإعطاء الأوراد.

درس على والده القاضي السيد أحمد الهاشمي الحسني (1311 هـ) ومحمد بن يلس التلمساني (1346 هـ) ومحمد بدر الدين الحسني (1354 هـ) ومحمد بن جعفر الكتاني (1345 هـ) وعبد القادر الدكالي (1354 هـ) وتوفيق الأيوبي (1351 هـ) ونجيب كيوان (1352 هـ) ومحمد أمين سويد (1355 هـ) ومحمود العطار (1362 هـ) وعبد المجيد الطرايشي (1363 هـ) ومحمد سليم الحلواني (1363 هـ) ومحمد بن يوسف الكافي (1380 هـ) وعبد الحي الكتاني (1382 هـ) وحسين بن عبد الكريم الحمزاوي (1395 هـ) والمرشد الكامل الشيخ أحمد بن مصطفى المستغامي الشهير بابن عليوه (1353 هـ) وأذن للشيخ محمد الهاشمي بالورد الخاص والعام وخلفه عنه في الشام بالطريقة الدرقاوية العلية المنسوبة إليه.

نشر الطريقة الشاذلية الدرقاوية في دمشق وحمص وحماة وحلب وغيرها في سورية والعراق ولبنان وفلسطين والأردن حتى عرفت باسمه ووصلت إلى تركيا وأوروبا وأمريكا.

هاجر إلى الشام مع شيخه الشيخ محمد بن يّلس بعد أن ضيّقت السلطات المستعمرة على العلماء ومنعتهم من حلقات التدريس.

* * *

وتوفي والده عام 1894م وعمره وقتها ثلاثة عشر عاماً فكان هو المسؤول عن رعاية أسرته وتلبية متطلباتها وفي نفس الوقت تآقت نفسه لرشف ما بهذه الكتب من علوم حتى إذا أينعت فكرة الرحيل إلى تلمسان عنده لما يسمع عنها وعن مساجدها وانتشار الزوايا فيها وعن كثرة العلماء وطلبة العلم في تلمسان وخاصة في علوم القرآن والتنافس في حفظه وإتقانه وعلوم الحديث وطلب الأسانيد وتتبع الرواة إلى جانب ما يسمعه عن الجهاد والمجاهدين الذين يلحقون بفرنسا المستعمرة من الأذى والنكال.

كل ذلك جعل الفتى محمّداً يزمع الرحيل إلى تلمسان وساعده على ذلك أن هذه الفكرة كانت هاجس أبيه من قبل وهاجس الأسرة كلها، فما أن طرح الفكرة على والدته وأسرته حتى وافق الجميع عليها، فقام ببيع جميع ما تركه لهم الوالد أحمد رحمه الله من أراضٍ وبساتين وباع البيت الذي كانوا يسكنونه. كان ذلك في عام 1896م الموافق 1324هـ. ثم انتقل وأسرته إلى تلمسان.

* * *

السفر إلى تلمسان

وقبل أن يسافر إلى تلمسان ودّع رحمه الله أقاربه وجيرانه وأهل قريته وانطلق مع أسرته إلى تلمسان وليس معه إلا المكتبة والمال الذي وفره من بيع الممتلكات.

ووصلوا مدينة تلمسان بعد جهد شديد ونزلت الأسرة وسط المدينة (تلمسان) قرب ساحة كبيرة هي ساحة الشهداء.

وانطلق الشاب محمّد يبحث هنا وهناك عن مأوى ومسكن لهذه الأسرة فوفّق بشراء بيت بجوار مسجد جامع يدعى (المسجد الكبير).

وما أن حط الشيخ رحله واستقرّ به المقام في هذه المدينة، مدينة العلم والإيمان حتى أخذ بالبحث عن العلماء الأجلاء في هذا البلد.

فدرس عليهم علوم العربية وعلوم القرآن والتفسير وعلم مصطلح الحديث وكتب السنّة والفقّه المالكي وأصول الفقّه وعلم التوحيد والسيرة وغيرها.
ثم تعرف على الشيخ محمد بن يلس فأخذ عنه علم التصوف والطريقة الشاذلية والدرقاوية.
وكان الشيخ له بمثابة الوالد بعد رحيل والده والمرشد.
وأذن الشيخ محمد بن يلس للشيخ محمد مع صغر سنه وقتها بالورد العام لصفاء قلبه وسعة علمه، وهمة العالية وغيرته على دين الله وحرماته، وعفته عن الدنيا وزخرفها وانصياعه للحق، وحرصه على حضور مجالس العلم، ومجالس الذكر دون ملل أو تعب.
وبقي الشيخ وتلميذه في تلمسان خمسة عشر عاماً بعد وصول الشيخ محمد إليها.



هجرته إلى الشام:

وأورد في مذكراته فقال: (الحمد لله في يوم الخميس 20 رمضان 1329هـ الموافق 14 سبتمبر (أيلول) 1911م، خرجنا من تلمسان: مهاجرين، وأقمنا (بطنجة) شهر شوال بتمامه ننتظر (البابور) وفيها بلغنا خبر هجوم إيطاليا على طرابلس الغرب، خيب الله سعيها، ونصر الإسلام عليها والسلام. عبد ربه محمد بالهاشمي).
وجاء في مذكراته أيضاً: (وفي 5 ديسمبر (كانون أول) وصلنا إلى (مرسين) (في عام 1329هـ / 1911م) وكان إذا ذلك مضت 27 يوماً من ذي الحجة. فتحصل من هذا أننا مكثنا في السفر والإقامات شهرين وواحدًا وعشرين يوماً والسلام. عبد ربه محمد بالهاشمي..).
ومن مرسين انتقل إلى أضنه فأقام فيها ما يربو على العام ينتظر الفرصة لأن يأتي دمشق والتي استقطبت قلوب الصالحين من مشارق الأرض ومغاربها.

السفر إلى دمشق: بعد هذه الإقامة في أضنه انتظر الفرصة الملائمة وهدوء الأحوال ليسافر

على دمشق حتى إذا وجد الفرصة سانحة انطلق ومن معه إلى دمشق.
وحط ترحاله في مدينة دمشق التي لا يعلم عنها إلا اسمها ولا يعرف أين يذهب وأين ينزل؟
فترك الأمر لله سبحانه الذي تولى تسيير شؤونه.

حطّ رحله في مكان قريب من مدخل سوق الحميدية شمالاً وكان بالقرب منهم رجل يعمل في دكانه يبيع ويصلح (المظلات) والتي تسمى بالشماسي ويدعى هذا الرجل أبا كمال الشميساتي فما أن رأى الشيخ وأسرته حتى هرع إليه وعزّفه بنفسه وألح عليه أن يستقبله ومن معه في بيته بالقزازين قريباً من ذلك المكان. وخاصة أن الحاج رابع الجزائري التلمساني كان يسكن في هذا الحي وهو الذي شجعه على القدوم إلى دمشق. وأسكن الشيخ البناء السفلي من البيت. ولما عرض الشيخ عليه الأجرة أبي كل الإباء ورفض أخذ أجرة على ذلك "لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً".

البحث عن عمل:

وبعد وصوله في اليوم التالي من قدومه أخذ يطوف في الأسواق باحثاً عن عمل يكسب منه مالاً يغنيه عن حاجة الناس وليستغني به أهله. فوفقه الله للعمل في شركة خاصة كمتّرجم للغة الفرنسية إلى العربية وبالعكس، وبعد فترة ترك العمل لدى هذه الشركة لتعاملها من الفرنسيين وانحيازها لهم فاستأجر حانوتاً لبيع وتصليح الأحذية في منطقة (العمارة الجوانية) وما يسمى جادة نقيب الأشراف. بقي سنوات في عمله حتى أغناه الله من فضله وتفرغ للعلم والإرشاد وتسليك السائرين إلى الله من المحيّنّين والباحثين عن الطريق إلى الله. وهكذا نرى اعتماد الشيخ على الكسب من عمل يده ليضيف الجهاد في الكسب إلى الجهاد من أجل العلم إلى الجهاد في سبيل الله. كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله. ومن خرج يسعى على أهله وأولاده يكفهم عن السؤال فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى مفاخرة ورياء فهو في سبيل الشيطان. فالمهم أن يأخذ المرء بالأسباب والرزاق هو الله فلم يرض رحمه الله أن يكون عالة على أحد، بل ضرب أروع مثل حينما فتح حانوته ليتكسب من عمله فيه، ومن قبل تلك المكتبة التي تدرّ عليه مالاً يتعفف به عن ذل المسألة.

وفاة والدته وأخيه في دمشق:

وفي دمشق توفيت والدته، ثم بعد عام توفي أخوه الأصغر ذكر في مذكراته الخاصة قائلاً: (في يوم السبت قبيل المغرب أيضاً تاريخ 3 ذي القعدة 1333هـ الموافق في 29 أغسطس (آب)

1915م توفيت والدتي أمة الله خيرة بنت الشيخ أبي زيان، ودفناها يوم الأحد بجوار زوجات المصطفى صلى الله عليه وسلم بمقبرة سيدنا بلال بدمشق الشام رحمها الله تعالى رحمة واسعة. عبد ربه محمد بن أحمد بالهاشمي لطف الله به آمين).

وكتب عن وفاة أخيه: "في يوم الأربعاء عند طلوع الشمس تاريخ 16 جمادى الثانية 1334هـ الموافق 5 نيسان 1916م توفي أخي الشيخ محمد الصغير، ودفناه في تربة الباب الصغير قرب ابن أم مكتوم الأعمى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بدمشق الشام رحمه الله رحمة واسعة، عبد ربه محمد بالهاشمي لطف الله به آمين".



شيوخه في الشام:

- المحدث الأكبر الشيخ محمد بدر الدين بن يوسف الحسني (1354هـ).
- محمد بن جعفر الكتاني (1345هـ).
- عبد القادر الدوكالي (1354هـ).
- توفيق الأيوبي (1351هـ).
- محمد نجيب كيوان (1352هـ).
- محمد أمين سويد (1355هـ).
- محمود العطار (1362هـ).
- عبد المجيد الطرايشي (1363هـ).
- محمد سليم الحلواني (1363هـ).
- محمد بن يوسف الكافي (1380هـ).
- عبد الحي الكتاني (1382هـ).
- حسين بن عبد الكريم الحمزاوي (1395هـ).

أما شيوخه في التصوف:

- محمد بن يلس التلمساني | (1346).
- أحمد بن مصطفى بن عليوه (1353هـ).

مؤلفاته:

- مفتاح الجنة في شرح عقيدة أهل السنة (موجود في الموقع ضمن كتب مختارة).
- الرسالة الموسومة بعقيدة أهل السنة مع نظمها.
- سبيل السعادة في معنى كلمتي الشهادة مع نظمها.
- القول الفصل القويم في بيان المراد من وصية الحكيم.
- شرح شطرنج العارفين المنسوب إلى الشيخ الأكبر قدس الله سره المسمى أنيس الخائفين وسمير العاكفين في شرح شطرنج العارفين.
- الحل السديد لما استشكله المرید من جواز الأخذ عن مرشدين.



ورغم كل ما سبق كان رحمه الله شاعراً لا يشق له غبار، فله قصائد في الرثاء، وقصائد تعليمية في السلوك وله نظامان في علم التوحيد. وشارك في الجهاد في سبيل الله إثر العدوان الثلاثي على مصر، وساهم في مد يد العون من دمشق للمجاهدين في الجزائر. وكان من أعضاء رابطة العلماء التي تأسست في دمشق من 87 عاماً سنة 1946، وترأس لفترة هيئة أرباب الشعائر الدينية التابعة لوزارة الأوقاف لفترة مؤقتة.



دروسه وتلامذته: اشتهر بعلم التوحيد والعقيدة علماً وعملاً. وكان وقته كله للعلم والتدريس. وكانت له دروس عامة على مدار الأسبوع. فيوم الأحد: له درس في الجامع الأموي بعد صلاة العصر وفي نفس اليوم له درس ومجلس ذكر في جامع الشامية بعد صلاة المغرب. وفي يوم الاثنين: له درس خصصه لأهل حيّه في المهاجرين كل أسبوع بعد صلاة المغرب في بيت واحد من الجيران. وفي يوم الأربعاء: يحضر مجلس الصلاة على النبي في أحد مساجد دمشق. وفي يوم الخميس: كان له درس في جامع الشامية بعد صلاة المغرب.

وفي يوم الجمعة كان له درس في منزله بعد صلاة الفجر.

وبعد صلاة الظهر درس ومجلس ذكر في جامع نور الدين الشهيد (النورية)، وما زال هذا المجلس قائماً إلى يومنا هذا بإشراف سيدي الشيخ شكري اللحفي نفعنا الله به ومتعنا بحياته. وكان له مجلس آخر بعد صلاة العصر في منزل الشيخ بدر الدين الحسيني المحدث الأكبر في النقاشات استمر عدة سنوات بعد وفاة الشيخ بدر الدين.

أخلاقه وسلوكه: كانت أخلاقه رحمه الله مثلاً للأخلاق النبوية، فكان على النهج الذي نهجه

رسول الله صلى الله عليه وسلم، وربى عليه أصحابه الكرام. وكان رحمه الله يتحرى جمال الملبس في المظاهر، كما تحلى الجسد في الباطن فتراه أنيقاً نظيفاً في مظهره مقتنياً أثر أبي الحسن الشاذلي أيضاً في الملبس ويهتم بنظافة أسنانه مواظباً على السواك فيطبق أمر الرسول صلى الله عليه وسلم "عليكم بالسواك، ولولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة".

وكان رحمه الله إذا ما جلس بين العلماء يختار المكان الذي يجده فارغاً بعيداً عن الصدارة فيأبى الجميع له إلا الجلوس في الصدارة ويتكلم العلماء والمتكلمون وهو صامت يفضل السكوت على الكلام ويصغي ويستمع إلى المتكلم أو الخطيب، فإذا ما طلب إليه الكلام بإلحاح وإصرار تكلم فبهر الحاضرين بحلاوة حديثه ونور كلامه.

ومن أخلاقه التواضع فلم يسبقه أحد من العلماء بذلك. فقد كان يخدم إخوانه وزواره بذلك، يعامل الآخرين كما يجب أن يعاملوه، يخدم إخوانه بنفسه، حليماً، واسع الصدر لا يغضب إلا لله كريماً لا يرد سائلاً ولا سيما في مواسم الخير.

وكان رحمه الله لا يرضى أن يقبل أحد يده - مع حرص تلاميذه على ذلك - إلا إذا أعطاه التلميذ يده بالمقابل. فيقبل كل منهما يد الآخر. حتى عرف ذلك بين الناس قاطبة كل يقبل يد الآخر.

جوده وكرمه: بنى داره في حي المهاجرين قسمين: قسم لأهله، وقسم لتلاميذه ومريديه، ينام

عنده الكثيرون منهم فيخدمهم هو بنفسه.

وكانت موائده عامرة صباحاً وظهراً ومساءً يأكل كل من كان موجوداً، ولا وقت إلا وعنده طلبة علم في درس يقرره أو زوّار له يزورونه، بالإضافة إلى المريدين الذين تعودوا أن يكونوا معه طوال الوقت وانقطعوا لمرافقته.

ورآه مرة رجل من الريف، فسلم على الشيخ ويبدو على الرجل مخايل الفقر والبساطة، فبشَّ الشيخ بوجهه، وفرح الرجل ومشى مع الشيخ حتى دخل داره ونزل عليه ضيفاً، لا يفارقه كلما دعي الشيخ إلى مأدبة أو دعوة يذهب معه ولم يتأفف الشيخ منه مرّة واحدة، وأهدي إلى الشيخ لباس مغربي من المغرب كالذي يلبسه الشيخ فهتف الرجل أعطني إياه يا شيخ لألبسه فأعطاه إياه وهو يضحك ولا تسل عن الحاضرين من أحباب الشيخ وتغيظهم من هذا الرجل.

وبقي الرجل شهوراً عدّة، فقالت امرأة الشيخ للشيخ لو أن هذا الرجل يأتي بأهله ليعيشوا معنا حرام عليه أن يعيش هنا في المدينة ويترك أهله في قريته. تقول هذا ولسان حالها يقول للشيخ.. أما اشتاق الرجل لأهله وولده؟ هل الضيافة شهور؟ أما يكفي ما تحملنا منه؟ ألا يجدر أن تقول للرجل .. كفاك كفاك. وإذا بالشيخ رحمه الله وقدس الله سره يقول: الله، الله، والله يلزم أن نخبره بأن يأتي بأهله معه، لقد قصّرنا نحن .. فتقول: لا. بالله عليك لا تفعل.. يكفيننا هو.

حلمه: أذكر أنه عندما أراد أن يبني داره في جبل قاسيون وكان أمراً مشاعاً على القاعدة الشرعية من سبق إلى مباحٍ فقد ملكه، فأخذ الناس يتسابقون إلى الجبل المعروف اليوم بحي المهاجرين، ويعمرونه وعقد الشيخ العزم على بناء دار له، فاخبط لنفسه مكاناً، وشرع يعمل فيه، ويساعده كثير من المريدين والمحبين للشيخ، حيث يجري قلع الأحجار وتكسيورها ثم يجري نقلها وتجميعها.

وبعد أيام من الجد والعمل الشاق، حضر رجل شركسي وقال للشيخ: يا شيخ أعجبنى هذا المكان فاختر لنفسك مكاناً آخر....

وإذا بالشيخ يقول: نعم يا سيدي هو لك.. ودهش أحباب الشيخ لم يرض أبداً، بل طيب خاطر الرجل وبحت عن مكان آخر هو داره التي هي الآن.

ورعه: من ذلك حادثة لا زلت أذكرها حيث عايشها الوالد رحمه الله وكان لا يكاد يفارق

الشيخ وقتها هو وشخص آخر يحمل نفس الاسم فكان يقال (بشير وبشير).

عند الانتهاء من رفع الجدران احتاجوا لسقفه والأبواب والنوافذ أشار أحدهم ويدعى (أبو كمال البرزاوي) رحمه الله وكان عمله (نجار باطون) ويشغل في البناء، فأشار على الشيخ أن يفتشوا عن بيوت معروضة للهدم وبناء مساكن جديدة مكانها (بنايات ذات طوابق). واهتدوا

إلى مكان معروض للبيع، واتفقوا مع صاحب البناء على مبلغ معين لأخذ (الخشب والنوافذ والأبواب).

ولما شرعوا في الهدم لأخذ الأخشاب التي على السطوح وكسروا الاسمنت الذي فوقه ظهرت لهم شبكة من الحديد وكان الحديد وقتها مفقود وغالي الثمن.

فرح أحباب الشيخ بذلك واعتبروه هبةً من الله جاءت للشيخ، وبذلوا أقصى جهداً بالأى يفقدوا خشباً أو حديداً فعملوا بمشقة وتؤدة لفصل كل نوع على حدة واستخلصه ليعيدوا بناءه في بيت الشيخ.

وما أن علم الشيخ بوجود الحديد الذي استخلص وكان يساوي وقتها أكثر من ضعف المبلغ الذي دفعه الشيخ حتى بادر إلى إعلام صاحب ذلك البيت قائلاً: يا سيدي نحن اشترينا الخشب وظهر وجود الحديد، وأبى أن يأخذ شيئاً منه.

ومن أخلاقه رحمه الله أنه لا يقاطع أحداً في حديثه ويصغي إلى محادثة ويستمع له مع تطيب خاطره بقوله: الله... ما أحلى هذا، وكثيراً ما يأتيه مستفتٍ أو سائل عن مسألة فينبري أحدهم بالإجابة أو السائل نفسه سيدي أليس الأمر كذا وكذا؟ فيجيب نفسه بنفسه. فيقول الشيخ: الله.. صحيح يا سيدي ثم يتكلم الشيخ موضحاً المسألة أو الأمر دون تجريح أو تبيكيت.

ولا يحب الجدل وينهى عنه إن كان محقاً. أذكر حادثة شهدت مع والدي رحمه الله تعالى في منزل الشيخ حيث تجادل اثنان من تلامذته حول مسألة فقهية والشيخ ساكت مطرق مكانه، واحتد النقاش بينهما وكلّ بدوره يأتي بالشواهد والأدلة على قوله، ثم إن احدهما انطلق إلى المكتبة وأحضر كتاباً راح يبحث فيه عن دليل فما كان من الشيخ إلا أن نهره وأمره بإعادة الكتاب على مكانه وقال له: ((تريد أن تكسر رأسه بالدليل؟)).

وفاته: مرض الشيخ رحمه الله في آخر أيامه مرضاً أقعده عن مواصلة نشاطه فأوصى الأهل والعواد والمريدين بالتمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وأن يلتزموا مجالس العلم والذكر.

واضطربهم الأمر لإدخاله مشفى المواساة.

وفي صباح الثلاثاء من 12 رجب 1381 هـ الموافق 19 كانون الأول 1961 فاضت روحه الطاهرة، وصلى عليه في الجامع الأموي، ودفن في مقبرة الدحداح بجانب الشيخ أبي الخير الميداني تغمدهم الله برحمته وحزيب إحصانه، وجمعنا معهم في الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين تحت ظل سيد المرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين. وفي الختام أعتزف بقصوري في التعريف بالشيخ فهو رحمه الله أكثر من أن أحيط بوصف أخلاقه وسيرته، ولكنه جهد المقل وقطرة من فيض. اللهم اكتبنا في صحائفه واجمعنا معه في عليين تحت لواء سيد المرسلين والأولياء والصالحين والحمد لله رب العالمين.

منقول من كتاب "العلامة محمد الهاشمي مربي السالكين" بتصريف

